وجوه الشبه

بين المكسيك ومصر (١)

أتاحت لي الفرصة زيارة بلاد المكسيك قبل ثلاثة أشهر من الحرب الأخيرة ودعاني صديق لتناول طعام العشاء في إحد المطاعم الكبرى في مكسيكو العاصمة، فاسترعى نظري لباس الآنسات العاملات في المطعم اذ ذكرني هذا اللباس بما طالما رأيته في متحف القاهرة من موميات فرعونية. ذلك لأنه لايختلف عن كسوة المرأة في عصر الفراعنة في تفصيله وألوانه ونقوشه، من غطاء الرأس حتى حذاء الرجل

« ولماذا اختار صاحب المطعم لعاملاته ألبسة بنات النيل في العصر الفرعوني ؟»

وجهت هذا السؤال لرفيقي فتبسم وقال : « إن هذا الزي إن هو إلا زي نساء المكسيك في العهد القديم ! » .

فأثار هذا الجواب انتباهي وشوقي للتعرف الى وجه الصلة التاريخية بين مصر والمكسيك وازدادت اهتماماً بهذا حينما شاهدت في سهل « تيوتيهوا كان » على بعد خمسين كيلو متراً من العاصمة، وفي تشوشيكالكو وتشولولا، اهراماً مثل اهرام مصر، قائمة على قاعدة هندسية تكون دولة دالة على فصول السنة مثل هرم الجيزة الأكبر، وتساءلت أيضاً فيما إذا كانت الثقافة المصرية بلغت القارة الأميركية، وحملت معها تصميم الاهرام. واسترسلت في التفكير الى أبعد من ذلك فقد تساءلت عما اذا كانت عقيدة خلود النفس وما رافقها من فن التحنيط رافقت أيضاً في رحلتها من مصر الى المكسيك مشروع الاهرام، لما بينهما من الارتباط ولا سيما لأن طريقة التحنيط كانت واحدة عند الفراعنة وسكان أمريكا الجنوبية ولا تختلف حتى في الصغائر.

وهذا الاهتمام بالماضي أثار في نفسي حب الاستطلاع والمراقبة في الأحياء لعلي أعرف هل لا يزال التشابه بين مصر والمكسيك ملموساً في العصر الحاضر .

(١) محاضرة ألقاها سعادة محمد جميل بيهم بك رئيس جمعية اخوان الثقافة في بيروت في نادي الجمعية في ٥ من مارس سنة ١٩٤٨

على ان المفروض أن يكون وجه الشبه بين القطرين بعيداً ، لأن بلاد المكسيك قمّة على جبال ثم وأودية غائرة وأهلها تتجلى فيهم صلابة الصخور وصراوة النور ، بينما ان مصر تنبسط حول وادي النيل الخصب الريان فتنجلي في سكانها طراوة الأنهار ، وعذوبة تغريد الأطيار . ولكني مع ذلك لاحظت وجوه شبه كثيرة حتى يومنا هذا بين المصريين والمكسيكيين ، وخصوصاً في الأوساط الزراعية . فما أكثر ما يتشابهون في اختيار الألوان وأردية النساء وقلاداتهن الذهبية ! وما أشد ما يتشابهون في مزاولة الأساليب الزراعية القديمة وأدواتها ، وذلك فضلاً عن بعض العادات القديمة . وهي تتجلى في بعض الحفلات الشعبية وغيرها وخصوصاً في طريقة الخطبة ، على ان وجه الشبه بين البيئيين كثيراً ما يبدو أيضاً في بعض المآكل ، ففي مصر يعتبر الفول (المدمس) الصحن الشعبي . ويقابله في المكسيك طعام الذرة المتبل بالحمض والفلفل وهو عندهم الصحن الشعبي أيضاً والذرة عند المكسيكيين أهم عناصر الطعام ويعتمدون عليها ، مثلما يعتمد الفلاح المصري على الفول ، ويستعملون الأوراق الشفافة من عرانيسها لغلائف التبغ .

وكما ان المصري يألف بطبيعته الأباذير الحارة ، وتطيب له المآكل الحافلة بأنواع الفلافل والبهار ، فالمكسيكي شديد العناية أيضاً بهذه الأباذير لا سيما الحارة منها ويبلغ من شغفهم بها أنهم يعملون في مدينة ماردة سلطة بالفاكهة حافلة بالفلفلاء الحارة .

هذا إلى ان الخفة في الروح وحب اللهو وعدم المبالاة بالغد ، هي من طبيعة المكسيكي ، كما هي من طبيعة المصريين القدماء . فينفق المكسيكي كسب يومه غير حاسب حساباً للغد على قاعدة أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب .

وإذا حللنا هذا التشابه الكثير بين الشعبين على تأثير الجوّ والحرارة في كلا القطرين دون أن نجعل للتاريخ صلة ما بذلك ، فإذا عسانا نفسر التشابه بينهما في العناصات القومية الخاصة ؟

فاذا دخلت دكان بائع التحف والعناصات المكسيكية القومية ، والتفت يمنة ويسرة تراقب المنسوجات الوطنية وسائر المصنوعات التي تحتفظ بالطرز المكسيكي ، ورأيت البسط والقفار وأشكال الزوارق وتدرت فيها تشاهد من نقوش وأصبغة وألوان ورسوم ، خيّل إليك أنك في داخل مخزن من مخازن التحف المصرية في القاهرة . أو في أحد المتاحف الفرعونية

وإلى جانب ذلك لاحظت أن هنود المكسيك ، وهم سواد الشعب ، لا يقتصر الشبه بينهم وبين الدرق على ما بينهم وبين مصريي وعراقيي الأرياف فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى وجود كثير من التماثل بينهم وبين اهل البادية في سائر الأمصار العربية هذا ومن يقرأ كتاب

الفيل والآثروبولوجيون لعلامة البوت حيث يساوره العجب أسوة بالمؤلف، ويتساءل كيف تيسر للاميركيين قبل ألف سنة أو نحو ذلك أن ينحتوا تماثيل الفيل مع أن هذا الحيوان لا يعيش في بلادهم ؟ ويتساءل أيضاً معه اذا كانت الثقافة الهندية قد انتقلت من الهند الى القارة الأمريكية ، وحملت معها رسم الفيل .

والى ذلك فان من يقلب صفحات مفكرة طم مضى كان مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات قد أهداها لأصحابه ، يستوقف نظره فيها رسم قرية شبيهة بقرى مصر ، فيتساءل من الغاية من نشر هذا الرسم الغريب عن أمريكا ، بينما أن المفكرة اقتصرت على ايراد رسوم مشاهد أميركية فحسب ، وإذا به يقرأ في الصفحة المحاذية ما يلي : هذا منظر قرية بناها الهنود الحمر منذ الف سنة تقريباً في ولاية نيومكسيكو : وقد بنيت البيوت من نوع الطين الذي يسمونه « آدوبي » وهي كلمة مأخوذة من كلمة « الطوب » القبطية ولا يزال الهنود الحمر يسكنون هذه البيوت » .

والواقع أن بلاد المكسيك هي من أقدم أقطار أمريكا حفولاً بالسكان . فقد قال بعض المؤرخين ان وادي المكسيك كان مأهولاً بالسكان منذ خمسة وعشرين الف سنة . وقال المؤرخ برسكوت . « ان المكسيك كانت أبرز بلدان أمريكا اللاتينية عمراناً . كما أن سكانها الأقدمين كانوا يمتازون بذكائهم وأخلاقهم بدليل ما خلفوه من آثار شبيهة بآثار المدنيتين المصرية والهندية وما تركوه من أخبار عن الفتوحات والمغامرات الروائية التي تتمثل فيها أساطير النورمان والطليان التي وردت في الحكايات عن أبطالهم » اهـ .

ولا بدع فان ما بنته قبائل ايبلي قبل نيف وألف سنة من الميلاد في خواتيمالا وبوكاتان من مدن ، كانت آية في جمال البناء والهندسة ولا تزال آثارها تدل عليها ، كل ذلك يعرب عن مبلغ ما وصلت اليه المكسيك من العمران . ومن يزر مارده في البوكاتان ويرى فيها تلك الهياكل المتهدمة المعروفة بخرائب « شيشن إيتذا » بر النعامة والقردة والهندسة ، ومثلها خرائب مثلا وكياروا . وإنا لنقف هنيهة ازاء هذه الآثار ونفكر فيما اذا كانت مصر والهند هما اللتان اقتبستا من المكسيك ، أم أن المكسيك هي التي أخذت عنهما . فقد روى بعض المؤرخين أن اهرام شيشيلكو القائم في ناحية مكسيكو العاصمة ، يتراوح عمره بين الأربعة والعشرة آلاف سنة . وإذا صح أن هذا الاهرام بني قبل بضعة آلاف من السنين فتكون المكسيك قد سبقت مصر في رفع الاهرامات ، وإلا فربما يكون اهرام شيشيلكو عاصر قيام أول اهرام بنته الأسرة الأولى من الفراعنة ، أو أنه بني على أقل تقدير في حدود العصور التي رفعت فيها اهرامات الجيزة الثلاثة من قبل الأسرة الفرعونية الرابعة .

هذا وقد بدا لي إشكال آخر منذ ألقيت نظري على الاهرامات القائمة في تيوتيهواكان وتشوشيكالكو وتولا في المكسيك . وسبب ذلك ان هذه الاهرامات مبنية هي شكل مدرج طبقات وفقاً لاصول فلكية كيما يعرفون بها المواقيت اليومية والشهرية استناداً الى حركتي الشمس والقمر . وأكبر هذه الاهرامات إثنان أحدهما كان يحمل إسم الشمس والآخر إسم القمر . كما استرعت نظري تماثيل ونقوش بارزة في هذه الاهرامات أشبه شيء بنقوش ورسوم الهند ، وغير بعيدة عن نقوش البابليين والكلدانيين . بينما إن اهرامات الجيزة الثلاثة كانت ملساً لا طبقات فيها ولا زخارف .

ووجه الاشكال الذي حدث في نفسي فيما إذا كانت المكسيك قد أخذت فكرة الهرم عن غير مصر مع ما تنطوي عليه من المقاصد وخصوصاً الدينية وذلك لانهم عثروا في آثار بابل على ما يدل ان البابليين القدماء كانوا يبنون أبراجهم العالية على شكل الهرم المدرَّج طبقات وكل طبقة أقل مساحة من التي تحتها على نحو اهرامات المكسيك .

ولكن ماذا نقول عن التمثال الجاثم أمام مدخل معبد المحاربين في خرائب شيشن إيتسا في يوكاتان ؟ فاذا كانت فكرة الأهرام لم تنقل عن الفراعنة ، بل نقلت من بابل ، فهل نرى ان هذا التمثال الكبير الذي يمثل رأس امرأة في جسم حيوان غير مقتبس أيضاً عن أبي الهول الرابض في الجيزة ؟

وماذا نقول عن تلك النقوش ذات الشكل الصوري التي وجدت في المكسيك على قبور بعض القواد العظام وغيرها ؟ وهي تشبه الكتابة الهيروغليفية المصرية المنقوشة على الأحجار والبردي .

* * *

تلك معلومات لا تزال سرًّا من الاسرار لأن التنقيب عن الآثار في المكسيك يرجع الى غرة هذا القرن فقط .

ولعلَّ المكسيك التي تجمع في مادياتها أصولاً تتفق مع الهند وبابل ومصر كانت على اتصال مع الشرق ، ولعلَّ أدوات الاتصال بين أجزاء الأرض في عهد قديم كانت أرقى درجة من السفن والمراكب ذوات الأشرعة . وما يدرينا اذا كانت حكاية بساط الريح وليدة حقيقة أضاع الزمان معالمها وان ما بقي منها يتناقل على الألسن أصبح من قبيل أسطورة من الأساطير .

(بيروت) محمد جميل بيهم